العنوان:	الجذور الفكرية والتاريخية للصراع بين التيارين الإسلامي والعلماني في الشرق الأوسط
المصدر:	مجلة التنوير
الناشر:	مركز التنوير المعرفي
المؤلف الرئيسي:	مكاوي، بهاء الدين
المجلد/العدد:	ع17
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2017
الشهر:	سبتمبر
الصفحات:	117 - 136
رقم MD:	906776
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الصراعات الفكرية، الفكر الإسلامي، الفكر العلماني، الشرق الأوسط، السياسة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/906776

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
مكاوي، بهاء الدين. (2017). الجذور الفكرية والتاريخية للصراع بين التيارين الإسلامي والعلماني في الشرق الأوسط.مجلة التنوير، ع17، 117 - 136. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/906776

إسلوب MLA
مكاوي، بهاء الدين. "الجذور الفكرية والتاريخية للصراع بين التيارين الإسلامي والعلماني في الشرق الأوسط."مجلة التنويرع17 (2017): 117 - 136. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/906776

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الجذور الفكرية والتاريخية للصراع بين التيارين الاسلامي والعلماني في الشرق الأوسط

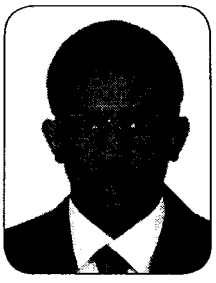

د. بهاء الدين مكاوي

أستاذ مشارك – قسم العلوم السياسية – جامعة العلوم التطبيقية (مملكة البحرين).

تمهيد:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مفهوم العلمانية والتطور التاريخي الذي أدى الى ظهورها في أوربا، وكيفية انتقالها الى العالم الاسلامي ، كما يهدف إلى إبراز العلاقة بين الدين والسياسة في الاسلام ، ويرمي -كذلك- إلى تسليط الضوء على الصراع بين التيارين : الاسلامي والعلماني في الشرق الاوسط في مرحلة ما بعد الاستعمار الاوربي لبلدان المسلمين ، محاولاًعرض الحجج التي يستند اليها التيار العلماني في دعوته لفصل الدين عن الدولة ، ورد التيار الاسلامي عليها.

وسيتم تناول الموضوع من خلال المحاور التالية:

المحور الأول : مفهوم العلمانية.

المحور الثاني : الخلفية التاريخية لظهور العلمانية في أوربا.

المحو الثالث :السياسة في الاسلام.

المحور الرابع :اسباب انفصال السياسة عن الدين في التاريخ الاسلامي.

المحور الخامس :الحوارات الفكرية بين التيارين الاسلامي و العلماني في الشرق الاوسط.

أولاً : مفهوم العلمانية:

كلمة علمانية تقابل الكلمة الانجليزية(Secularism) وهذه الكلمة نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية(Saeculum) وتعنى العالم أو الدنيا (فى مقابلة الكنيسة او الدين) .

استخدمت هذه الكلمة لأول مرة فى بنود معاهدة وستفاليا سنة 1648م (عقب نهاية حرب الثلاثين عاما) حيث أشارت المعاهدة إلى علمنة(Secularization) ممتلكات الكنيسة، وقد قصد بذلك نقل ممتلكات الكنيسة إلى سلطات سياسية لا دينية. وقد كان المصطلح -عند ظهوره- محايداً إزاء موضوع الدين، فعلى سبيل المثال، استخدمه جون هوليوك(1817- 1906م) ، -وهو أول من نحت المصطلح بمعناه الحديث - بمعنى امكانية إصلاح حال الانسان بالوسائل المادية (دون أن يتطرق لموضوع العقيدة والايمان بالرفض أو القبول).

إلا أن المصطلح قد أصبح يعنى لاحقاً رفض الدين فى الجانب السياسى ، وحصره -إن كان لابد منه- فى دائرة المسائل الشخصية[1]، فهناك من عرفها على انها هي مبدأ الفصل بين المؤسسات الحكومية و الأشخاص المكلفين لتمثيل الدولة من المؤسسات الدينية و الشخصيات الدينية . ومن مظاهر العلمانية التأكيد على الحق في التحرر من الحكم والتعاليم الدينية ، وأن الأنشطة و القرارات العامة ، وخاصة السياسية منها ، ينبغي أن لا تخضع لنفوذ المعتقدات و / أو الممارسات الدينية[2].

انتقل المصطلح الى العالم العربى الاسلامى مع الاستعمار، وقد اختلف المفكرون العرب حول الترجمة الدقيقة لكلمة (Secularism) فقال فريق منهم بانها علمانية (بكسر العين) نسبة - على غير قياس - الى العالم ، وقال فريق ثان بأنها علمانية (بفتح العين) نسبة الى العلم ، بينما أسماها فريق ثالث بالدنيوية ، وقدعرفوا العلمانية بانها (اللادينية السياسية) أى فصل الدين عن الدولة والمجتمع.

ولكى نفهم معنى المصطلح وأبعاده، لابد من إلقاء الضوء على الظروف والملابسات التى أوجدته ، والتطور التاريخى الذى أدى إلى ظهوره .

ثانياً: الخلفية التاريخية لظهور العلمانية فى أوربا:

يمكن القول بأن العلمانية هي نتاج للصراع الحاد الذى قام بين الكنيسة والعلماء فى أوربا فى العصور الوسطى، وترجع أسباب ذلك الصراع الى ان الكنيسة فى اوربا كانت قد قامت بتحريف الكتاب المقدس فادخلت عليه كل ما توصل اليه العلم آنذاك من نظريات فلكية وطبيعية ، وضمنته الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية. هدفت الكنيسة من ذلك الى دعم نفوذها وتقوية سلطانها فى مواجهة المارقين عليها والناقدين لها، فاختلطت الكتب المقدسة -نتيجة لذلك- بكلام البشر. ولعل تحريف الحقائق الإلهية وخلطها بالمعلومات البشرية كان أكبر الأخطاء التى ارتكبتها الكنيسة فى حق الدين المسيحى، بل وفى حق نفسها ، ذلك ان الاكتشافات العلمية التى حدثت لاحقاً قد أكدت خطأ الكثير من المعلومات التى كانت قد دخلت فى صلب الكتب المقدسة، وقد كان ذلك هو السبب فى الصراع المعروف بين العلماء ورجال الكنيسة ، إذ رات الكنيسة فى آراء العلماء واكتشافاتهم ما يهدد الإيمان الدينى ويخالف التفسير المعتمد للنصوص المقدسة.

ولعل أكثر ما أضر بالكنسية أنها ضمنت الكتب المقدسة معلومات تفصيلية عن الكون والحياة ، فقالت إن الأرض هى مركز الكون ثابت، وإن الهن خلق العالم ابتداءً سنة 4004 ق . م ، وخلق آدم فى نفس العام وذلك فى جنة عدن التى تقع علىٰ مسيرة يومين من البصرة، وان الطوفان وقع بعد خلق الإنسان الأول بـ(2262) سنة أى عام 1742 ق. م.

(1) عبدالوهاب المسيري ، العلمانية : رؤية معرفية ، مجلة الإنسان ، العدد العاشر ، السنة الثانية ، ابريل 1993م .

(2) "Secularism & Secularity: Contemporary International Perspectives". Edited by Barry A. Kosmin and ArielaKeysar. Hartford, CT: Institute for the Study of Secularism in Society and Culture (ISSSC), 2007, PP. 2122 -.

ولعل أكثر القضايا التى فجرت الصراع بين الطرفين قول العلماء بدوران الأرض حول الشمس، وكان أول من قال بذلك من العلماء الاوربيين العالم كوبرنيق (كوبرنيكس) الذى صاغ نظريته الفلكية عام 1543م، إلا أن كوبرنيق قد توفى قبل أن تناله يد الكنيسة بالعقاب، تلاه العالم برونو الذى قال بدوران الأرض وأصر على قوله فاحرقته الكنيسة عام 1600م ، وفى سنة 1609م، توصل العالم الإيطالى جاليليو الى صنع التلسكوب فأثبت تجريبياً ما قال به أسلافه، وقد مارست عليه الكنيسة ضغوطاً اضطرته الى التراجع عن قوله وهو راكع أمام البابا.

وقد أصرت الكنيسة على ثبات الأرض قائلة: (إن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن المسيح تسجد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص وفوقها يتناول العشاء الربانى)، وإن التوراة تقول : الأرض قائمة الى الأبد، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع الى موطنها حيث تشرق[3]، وقد سخرت الكنيسة من القول بكروية الأرض قائلة: (إن من خطل الرأي أن يعتقد إنسان بوجود أناس تعلو مواطئ اقدامهم على رؤوسهم ، وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة الى أسفل)[4].

وقد كان البابوات آنذاك يتمتعون بنفوذ واسع وسلطات عظيمة، فقد امتدت سلطات البابا الى عزل الملوك وتعيينهم، وفرض الضرائب واصدار القوانين الإلهية للممالك. ومما يوضح النفوذ الذى كان يتمتع به البابوات فى أوروبا ، ما روي عن موضوع الدستور الفرنسى ، حيث اضطرت الجمعية التأسيسية فى فرنسا الى طلب موافقة البابا على الدستور المدنى حتى يكون شرعياً وسارى المفعول فى نظر الشعب الفرنسى، وقد حكم البابا بالشجب رسمياً على الدستور واعتبره لاغياً[5].

استخدمت الكنيسة هذه السلطات الواسعة والنفوذ الكبير فى قمع العلماء، وتصدت لأقوالهم واكتشافاتهم بعنف بالغ، وقد قدر عدد الذين عاقبتهم الكنيسة بثلاثمائة ألف شخص، أحرق منهم أثنان وثلاثون أحياء بحجة قولهم بحقائق تخالف ما جاء فى الكتب المقدسة ، ويذهب سفر بن عبدالرحمن الحوالى الى أن الكنيسة قد حاسبت الناس لا على معتقدات قلوبهم فحسب، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم[6].

وقد كان التلسكوب الذى توصل الى صنعه العالم جاليليو نقطة تحول كبرى فى تاريخ ذلك الصراع، حيث أصبح التلسكوب حجة قوية فى يد العلماء ودعاة التجديد ، وتحول الصراع بين الطرفين الى صراع بين العقل والنظر والتجربة المتمثلة فى مرقب جاليليو من جانب، والنصوص المقدسة التى تستند عليها الكنيسة من جانب آخر.

(3) سفر بن عبدالرحمن الحوالى، العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة، مطبعة ام القرى، 1982م، ص146 - 147.

(4) نفس المرجع ص150 -151.

(5) محمد المهدى شمس الدين، العلمانية: تحليل ونقد للعمانية محتوى وتاريخا فى مواجهة المسيحية والاسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م، ص163.

(6) سفر بن عبدالرحمن، مرجع سابق، ص150.

ثار العلماء والمجددون وطالبوا بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحى، إلا أنهم لم يستطعوا فى البداية أن ينكروا الوحى كلياً فجعلوا لكل من العقل والوحى مجالاً يعمل فيه ولا يتعداه ، وأشهر من قاد هذا الاتجاه الفيلسوف ديكارت الذى كان يرى أن ميدان العلم الطبيعة، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس فى العالم الآخر ، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، فلا مضايقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحدهما على الآخر[7].

ولكن بعد انتصار العلماء والمجددين على الكنيسة بعد صراعات دموية شديدة وتمكنهم من تحطيم نفوذها وتحجيم دورها، برز علماء وفلاسفة أكثر وضوحاً فى موقفهم من الوحى، أمثال جون لوك وهوبز وليبينز ، وجان جاك روسو. نادى هؤلاء الفلاسفة باخضاع الوحى للعقل، وبضرورة عزل الكنيسة عن شؤون المجتمع لصالح بناء الدولة البراجوازية الحديثة، ودعوا الى تصفية اللاهوت المسيحى من الأفكار غير العقلانية ، وطالبوا برفع الوصاية عن التعليم ، وقرروا أن الدين مسألة شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى شئون السياسة والمجتمع، وأن المسيحية موضوعها الحياة الأخروية فقط. وفى الواقع ، فإن الدين قد ارتبط فى أذهان الكثير من الاوربيين بتلك الممارسات الوحشية التى قام بها رجال الكنيسة فكان إذا ذكر الدين ذكرت تلك الدماء الذكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم[8]. ولم يستطعوا التمييز بين الدين الحق وممارسات رجال الدين المسيحى□ ولئلا تعود تلك القوى التى تدعي السلطان الروحى مرة أخرى، أقامت أروبا نفسها زعيماً لكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً [9].

وقد مرت العلمانية فى أوربا بمرحلة ثانية أصبحت فيها ضد الدين بصورة سافرة، فإذا كانت العلمانية فى مراحلها الأولى تهدف الى تحجيم دور الدين فى الحياة العامة وحصره فى المسائل الشخصية، فقد كانت فى هذه المرحلة تسعى لهدم الدين وتقويضه، وقد تمثل هذا الاتجاه فى كتابات فيورباخ وماركس وإنجلز ولينين، وقد عرف هذا الاتجاه باسم (العلمانية الثورية).

هدفت العلمانية الثورية الى القضاء على الدين باعتباره عقبة فى طريق الاشتراكية التى يسعون لإقامتها، ذلك لأن الدين - في نظرهم - هو - افيون الشعوب ومخدر الفقراء[10]، ولذلك فلابد من تقويضه وتخليص المجتمعات من تأثيره لصالح الاشتراكيةوالعدالة الاجتماعية. والدين فى نظر فيورباخ هو من ابتكار الإنسان ، وان الله ليس سوى وهم خلقه الإنسان لنفسه عندما سلط طبيعته على العالم الخارجى[11].

(7) نفس المرجع ، ص192- 193 .

(8) ابو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، 1984م ، ص132 .

(9) ليويولد فايس ، الإسلام على مفترق الطرق ، دار العم للملايين ، 1946م ، ص43 .

(10) عبد الباقى الهروماسى ، الدين فى المجتمع العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1990م ، ص 26- 27 .

(11) شبلى العيسمى ، العلمانية والدولة الدينية ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986م ، ص23 .

وكذلك ماركس الذى يرى أن الطبقة الشعبية المسحوقة ابتكرت الله والسماء والحياة الثانية، كمحاولة خلاص من وضعها المتخلف، وقد عززت الطبقات المستغلة والحاكمة هذا الاعتقاد لحماية مصالحها[12]، وهكذا فقد مهدت الأفكار التى نادى بها لوك وهوبز وروسو لظهور الماركسية فى أوربا.

ثالثاً: السياسة فى الإسلام:

وجدت العلمانية كما سبقت الاشارة- قبولا في الدول الاوربية المسيحية ، إلا أنها لم تحظ بهذا القبول عندما حاولت الانتقال الى العالم الإسلامى ووجدت معارضة شديدة حيث تصدت لها الحركات الاسلامية التى ترى أن العلمانية تجربة أوربية خالصة لا تناسب تاريخ وواقع العالم الاسلامى، بل إنها تخالف تعاليم الإسلام التى تجعل الحكم بالشريعة الإسلامية واجب على المسلمين . دعت هذه الحركات الى الرجوع للإسلام وتطبيق النهج الاسلامى فى السياسة. فما علاقة الإسلام بالسياسة ؟ وما هو النهج السياسى الإسلامي ؟.

إن التداخل بين الدين والسياسة لم ينقطع منذ ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادي. وخلافا لكل الأديان، فإن السياسة في الاسلام جزء لا يتجزأ من الدين، فالرسول (صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمَ) لم يكن زعيماً دينياً فحسب، وإنما كان اضافة الى ذلك ، زعيماً سياسياً ومدنياً وقاضياً وقائداً عسكرياً. وقد أسس الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمَ) دولة مكتملة البناء إذا ما قيست على العصر الذى نشأت فيه . قاد الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمَ) هذه الدولة ، وكان له وزراء ومشيرون أشهرهم (هيئة العشرة) و(نقباء الأنصار)، وفى مجال التعليم الدينى كانت هنالك عمالات تختص كل (عمالة) بمهمة محددة : كعمالة تعليم القرآن، وعمالة تعليم الفقه، وعمالة الافتاء، وعمالة الكتابة، وفى مجال العلاقات الخارجية والاعلام كان هنالك سفراء وخطباء وتراجمة ، وفى القطاع الحربى كان هنالك أمراء الجند، وكتاب الجيش ، والعرفاء. وقد واصل الخلفاء الراشدون من بعد الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمَ) جهودهم لبناء الدولة الاسلامية ورعاية شئونها وتحسين أوضاعها[13].

والدولة فى حياة المجتمع المسلم ضرورة أوجبها الدين، ذلك أن الهن سبحانه وتعالى قد فرض على المسلمين من الواجبات ما يتعذر القيام به دون وجود الدولة، كإقامة الحدود، والقصاص والدفاع عن العقيدة ، ورعاية المصالح الإسلامية بصورة عامة . كما أن الفرد المسلم، ولكى يصوغ حياته وفق تعاليم الإسلام، يحتاج الى سلطة تحميه تسهل عليه هذه الصياغة ، وهذا ما يجعل السلطة فى الإسلام أصل من أرسخ أصوله تتجاوز معه حد الضرورة لتصل به حد الفريضة باعتبارها أعظم واجبات الدين[14].

(12) نفس المرجع ، ص24 .

(13) أنظر تفصيل ذلك في : محمد عمارة ، الدولة الاسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 2007 ، ص 243-244 .

(14) صبحى عبده سعيد ، السلطة السياسية فى المجتمع الاسلامى ، وكالة الأهرام ، القاهرة ، 1991م ، ص76.

وقد ادرك علماء المسلمين أهمية السلطة فى المجتمع المسلم فقال الماوردى ويجب اقامة خليفة يكون سلطان الوقت ، وزعيم الامة، ليكون الدين محروساً بسلطانه ، والسلطان جارياً على سنن الدين واحكامه[15]. وقال الشهرستانى لابد للكافة من إمام ينفذ احكامهم ، ويقيم حدودهم، ويحفظ بيضتهم، ويحرس حوزتهم، يعبئ جيوشهم ، ويقسم غنائمهم، ويتحاكمون اليه فى خصوماتهم، ينصف المظلوم، وينتصف من الظالم، وينصب الولاة والقضاة، ويبعث القراء والدعاة [16]. ويقول إبن تيمية إن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا الدنيا إلا بها[17]. وقد دعا الإمام على بن أبى طالب إلى اقامة السلطة ولو كانت فاجرة حيث يقول: لابد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة، فقيل يا أمير المؤمنين : هذه البرة عرفناها فما بال الفاجرة؟ قال : تقام بها الحدود، وتأمن بها السبل ، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفئ [18].

ولأهمية السلطة ومكانتها فى فكر المسلمين، ظل المجتمع المسلم، ومنذ انتهاء عهد الخلافة الراشدة ، يشهد صراعاً حادا ومحاولات عديدة للتوفيق بين الرؤية المثالية للحكم الإسلامى والواقع الاجتماعى المنحرف عن هذا النموذج الإسلامى. هذا الصراع كان -ولا يزال- يفرز حركات اجتماعية تهدف إلى إعادة تشكيل الواقع للاقتراب من النموذج الإسلامى الراشد.

وفى التاريخ القريب، شهد القرن الماضى قيام عدد من الحركات الإسلامية التى تمكنت من الوصول للسلطة وتأسيس نظام اسلامى حسبمقتضيات العصر والمكان الذى نشأت فيه، وحسب مقدراتها الفكرية فى الاجتهاد لتحقيق ذلك. من هذه الحركات : الوهابية فى الجزيرة العربية ، والسنوسية فى ليبيا ، والمهدية فى السودان .

كما شهد العالم الإسلامي ظهور العديد من التيارات الفكرية التى تسعى لبلورة رؤية اسلامية لمعالجة قضايا العالم الاسلامى، وعلى أساس المبادئ والأفكار التى نادت بها هذه الحركات قامت الصحوة الاسلامية المعاصرة . واليوم يسود العالم الاسلامى عدد من الحركات الاسلامية التى تسعى بكافة الوسائل للوصول الى السلطة وتحقيق رؤيتها الاسلامية لصياغة المجتمع .

ولكن إذا كانت السلطة جزءً من الدين الاسلامى كما ذكرنا آنفاً، وأن النموذج السياسى الإسلامى ثابت تاريخياً، وراسخ فى وجدان الامة المسلمة إلى هذا الحد، فما هى العوامل التى أدت إلى انفصال السياسة عن الدين فى التاريخ الاسلامى ؟ متى بدأ ذلك ؟ وما هى الظروف والملابسات التى أدت إليه؟ وما هى الأسباب التى أدت الى سيادة العلمانية- وهى أوربية المنشأ- فى العالم الإسلامى ؟.

(15) نفس المرجع ، ص90 .

(16) نفس المرجع ، ص92 .

(17) ابن تيمية، السياسية الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص137 .

(18) نفس المرجع ، ص138 .

رابعاً: أسباب انفصال السياسة عن الدين فى التاريخ الإسلامى:

خلافا لكل الاديان، كما أوضحنا سابقا فإن السياسة فى الاسلام جزء لا يتجزأ من الدين، ولكن ، رغم ذلك، فإننا نلاحظ أن العلمانية تحكم وتسود أغلب بلدان العالم الإسلامى، فما هى الأسباب التى ادت الى هذه الحالة على الرغم من ان العلمانية تخالف تاريخ الإسلام وواقعة وتعاليمه ؟

فى واقع الأمر ، هنالك أسباب داخلية كثيرة أدت الى انفصال السياسة عن الدين فى التاريخ الإسلامى، أهمها الصراع حول السلطة والذى ادى الى تحوير المثال الإسلامى الراشد والانحراف بالسلطة الى وجهة غير اسلامية مما افقد السلطة- التى تدعي الحكم بالاسلام- الشرعية، وقاد الى معارضتها والخروج عليها. كما ان هنالك عوامل خارجية كثيرة ساعدت على سيادة العلمانية أهمها الاستعمار الذى استقدم النهج العلمانى الى هذه البلدان وعمل على فرضه بكافة الوسائل المتاحة .

1. العوامل الداخلية:

انفصلت السياسة عن الدين فى التاريخ الاسلامى بانتهاء عهد الخلافة الراشدة وانتقال الحكم لبنى أمية وقد كان ذلك سنة 41 هـ، فحتى ذلك الوقت كان النهج المتبع فى تنصيب الوالى ومراقبته هو النهج الاسلامى، فالجمهور المسلم هو الذى يختار الخليفة وفق شروط محددة اهمها : الإسلام ، والتقوى ، والامانة ، والعلم. كما أن الخلفاء الراشدين قد تمسكوا بالشورى منهاجاً للحكم ، وأقاموا العدل، وتفرغوا لبناء الدولة الاسلامية وتوسيع رقعتها ، وقد حققوا فى ذلك نجاحاً كبيراً.

إلا أنه، وبانتقال الأمر للامويين ، انحرف الحكم عن هذه المبادئ فاختيار معاوية نفسه لم يكن على اسس اسلامية صحيحة، كما أنه كان بداية لما اسمى بالملك العضوض، حيث اصبحت الخلافة إرثاً يتوارثه الأمويون دون غيرهم من الناس. كما بالغ الخلفاء الأمويون فى الترف والفساد وسوء استغلال المال العام، وانصرفوا عن الامور الدينية وانشغلوا بالانغماس فى اللهو والملذات.

ولم تكن الدولة العباسية إلا امتداداً للدولة الاموية رغم تبدل العناصر الحاكمة، بل إن الحكام العباسيين تحولوا الى حكام بالحق الإلهى ، وادعوا لانفسهم العصمة ولآرائهم القداسه، وهو أمر يخالف روح الاسلام الذى يجعل الأمر شورى ، والخليفة بشراً مجتهداً يخضع للتوجيه والنقد بل والعزل إذا رأى المسلمون ذلك.

لقد وصف ابو الحسن علي الندوى هذه الحالة قائلاً أنه وباستثناء عهد عمر بن عبدالعزيز - فإنه، وخلال العهدين (الاموى والعباسى) تولى منصب الخلافة رجال لم يكونوا له اكفاء، ولم يعدوا له عدة، ولم ياخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون .... ولم يكن لهم من روح الاجتهاد فى سبيل الاسلام ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الاسلامية [19].

والمعروف أنه، ورغم هذا الانحطاط السياسى ، فقد اتسم هذا العهد بالنهضة العلمية، والإنتاج الأدبى الغزير ، وذلك بفضل التشجيع الذى وجده الأدباء والعلماء من الخلفاء الأمويين والعباسيين . إلا أن ذلك لم يكن هو حال الفقه السياسى بالذات، ذلك أن الفقهاء الذين عاصروا تلك الفترة قد اعتزلوا الحياة العامة وحصروا انفسهم فى الاهتمام بمسائل العبادات والأحوال الشخصية . ابتعد الفقهاء عن الخوض في المسائل السياسية، ذلك أن مناقشة هذه المسائل وتوضيح رأي الإسلام فيها أصبح من الجرائم التي يستحق عليها الفقيه أقصى العقاب فآثر الفقهاء السلامة. كما ظهر اتجاه يحتقر السياسة ويطالب بعدم مخالطة الحكام. فعلى سبيل المثال يقول الغزالي ... ألاَّ تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة. وقال شيخ نهضة العالم الإسلامي وحامل لوائها الإمام محمد عبده أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس وقال علي الوردي إن السياسة لا تدخل في شيء إلاَّ أفسدته [20] فالمفارقة بين تيار الفقهاء مؤسسة الدولة كانت سبباً مباشراً فى محدودية الفقه السياسى مقارنة بالفقه فى المجالات الأخرى [21].

ومما أدى الى جمود الفقه الإسلامى بروز عدد من الفقهاء والمفكرين الذين قالوا بقفل باب الاجتهاد من أمثال الغزالى لأن هذا القول أدى الى تخلف الفقه الاسلامى عن العصر وظهرت تطورات هائلة فى المجتمعات الاسلامية لم يواكبها تطور فقهى يعالج قضاياها ويوجه مسارها، ولا زالت آثار الدعوة الى قفل باب الاجتهاد باقية، ولا يزال الفقهاء يعملون على سد الفجوة الناجمة عن هذه الدعوة.

ومن أسباب انفصال السياسة عن الدين فى التاريخ الإسلامى ظهور عدد من الحركات الباطنية فى العالم الاسلامى ، دعت هذه الحركات الى اعتزال الشأن العام والاهتمام بخاصة النفس والابتعاد عن السياسة بصورة خاصة ، وانعدمت بذلك الروح الايجابية التى يتميز بها الاسلام.

وظل المسلمون في هذا الحال الذي أدى بهم إلى انحدار متواصل لم يستفيقوا منه إلاَّ مع الهجمة الاستعمارية الغربية عليه.

(19) ابو الحسن الندوى ، المرجع السابق ، ص 76.

(20) محمد جابر الأنصاري ، العرب والسياسة: أين الخلل؟ دار الساقي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 2000م ، ص17 - 23.

(21) حسن الترابى ، الاسلام . . الغرب . . والحركة الاسلامية ، قراءات سياسية ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، 1992م ، ص11.

هذه العوامل مجتمعة أدت الى انفصال السياسة عن الدين فى التاريخ الاسلامى، ولكن يمكن القول أن نظام الخلافة الاسلامية قد استمر بصورة أو باخرى حتى وقت قريب حيث قام مصطفى كمال اتاتورك بإلغاء الخلافة العثمانية فى تركيا وذلك عام 1924م. وقد كان لإلغاء الخلافة أثرٌ سيئا على مستقبل العالم الاسلامى حيث مهد للهجمة الاستعمارية عليه فى القرن التاسع عشر الميلادى والتى كان من أهم نتائجها دخول العلمانية التى لازالت مستمرة حتى اليوم فى الدول الاسلامية .

2. العامل الخارجي:

انهت الهجمة الاستعمارية على بلاد المسلمين ما تبقى لهم من أمل فى عودة الاسلام الفاعل، فبنهاية النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقعت معظم دول العالم الاسلامى تحت السيطرة الاستعمارية الغربية ، وبعد أن تمكن الاستعمار من فرض سيطرته على هذه البلاد، سعى لتعزيز انتصاراته العسكرية بانتصار ثقافى وايديولوجى. وقد هدف الاستعمار من ذلك الى ضمان (تابيد) او على الأقل (تطويل) أمد تبعية هذه الدول للمركز الاستعمارى حتى يتمكن من تحقيق اهدافه المتمثلة فى نهب موارد هذه البلاد وجعلها مستودعات للمواد الخام واسواقا لمنتجاتها المصنعة ومصدرا للايدى العاملة الرخيصة .

وقد صادف انتصار التيار العلمانى فى اوربا ، الهجمة الاستعمارية على الدول الاسلامية فعمل الاستعمار الغربى على نقل هذه التجربة الى الشرق المسلم دون مراعاة لواقعه وتاريخه وعقيدة أهله فأقام اسس الحكم والاقتصاد والادارة والتعليم والقضاء كلها على أسس علمانية بحتة.

ولعل اكثر العوامل التى مكنت للعلمانية ببلدان العالم الاسلامى هو السياسة التعليمية للاستعمار ، فقد عمل المستعمرون على ادخال مناهج علمانية غربية الى العالم الاسلامى . وقد افتتحت كثير من الجامعات والمعاهد فى هذه البلاد. هدف المستعمرون من ذلك الى تخريج كوادر فنية لمساعدتهم فى ادارة هذه الدول . كما سعى المستعمر فى ذات الوقت الى ربط خريجى هذه الجامعات والمعاهد بالحضارة الغربية والمفاهيم العلمانية فكان نتيجة ذلك ان تخرجت من هذه المؤسسات التعليمية نخبة وطنية غربية الثقافة علمانية التوجه. وتأتى خطورة هذه النخبة من حقيقة أنها كانت الشريحة الوحيدة المتعلمة في هذه البلدان ، واستطاعت – لهذا السبب – ان تخلف المستعمرين على حكم هذه الدول في مرحلة مابعد الاستقلال.ولم تكن هذه النخبة –في واقع الامر –ألا امتداداً للنهج الاستعمارى الغربى ، فواصلت جهود العلمنة التى بدأها المستعمر .

هنا برزت الحركات الاسلامية كرد فعل على ممارسات هذه النخبة وتوجهاتها العلمانية الغربية. دعت الحركات الاسلامية إلى رفض ومقاومة هذه التوجهات باعتبارها منافية لتعاليم الاسلام ومخالفة لتجربة المسلمين التاريخية فى هذا الشأن ، وفيها تهميش لدور الإسلام فى توجيه المجتمع. دعت هذه الحركات الى مناهضة العلمانية والعودة الى أصول الاسلام واستنباط نظام اسلامى يستند على تعاليم الاسلام وتجربة المسلمين، وعلى الرغم من الانفصال المبكر بين الدين والشؤون العامة واتساع الفجوة بين المثال الذي ينشده المسلمون والواقع الذي يعيشون فيه ،فان بامكان المسلمين ردم هذه الفجوة بالاجتهاد لايجاد الحلول الاسلامية للمشاكل التي تواجهها مجتمعاتهم سواء كانت هذه المشاكل اقتصادية او اجتماعية اوسياسية او غيرها ، وقد ظل الصراع بين الحركات الاسلامية والنخبة الوطنية المتغربة محتدما منذ الاستقلال وهو ما أصبح يعرف فى الادبيات السياسية بـ(صراع العلمانية والاسلام فى الشرق الاوسط).

خامساً: الحوارات الفكرية بين التيارين الاسلامي و العلماني في الشرق الاوسط:

اعقبت الفترة التي تحررت فيها الشعوب الاوربية من هيمنة الكنيسة ، المرحلة التي اطلق عليها اسم (عصر النهضة) ، وربط الغربيون بين (العلمانية) و(النهضة) واعتبروا الثانية نتاج للأولى ، وشرعوا يبشرون بها ويدعون الى الفصل بين الدين والسياسة في أوربا ، وحينما جاء الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين انتقلت معه هذه الافكار ، وسعى جاهداً الى استبعاد الدين الاسلامي من كل المجالات الحيوية : كالتعليم والاقتصاد والسياسة والنظام القانوني وفرض انظمة غربية في كل هذه الجوانب ، واستمر على هذا المنوال حتى طويت صفحة الاستعمار ونالت البلدان الاسلامية حريتها واستقلالها .

عقب الاستقلال مباشرة اشتد الصراع بين التيارات الوطنية فى البلاد الاسلامية حديثة الاستقلال حول النموذج الامثل لحكم هذه الدول . ويعتبر هذا الصراع سمة مشتركة بين جميع الاقطار التى نالت استقلالها انذاك ، فقد أثيرت تساؤلات من قبل الوطنيين حول مستقبل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه البلدان مثل هل الافضل النظام الرأسمالي أم النظام الاشتراكي ؟ ، المركزية أم اللامركزية ؟، الحكم المدني أم العسكري ؟ ، العلمانية أم الاسلام ؟ ولعل من أكثر المسائل التى فجرت الصراع بين الوطنيين مسألة العلمانية والإسلام. وقد وقفت النخبة الوطنية التى ورثت الحكم وبعض الجماعات الاشتراكية الى جانب العلمانية وفصل الدين عن الدولة، بينما تجمعت التيارات الاسلامية فى هذه البلدان فى صف واحد ضد العلمانية واعتبرتها مخالفة للاسلام ودعت للرجوع الى الكتاب والسنة وتجربة المسلمين التاريخية .

يرى رواد التيار العلماني في الشرق الاوسط أن الاسلام نفسه يفصل بين الدين والدولة ففي كتابه الشهير (الاسلام واصول الحكم) والذي صدر عام 1925م، يقول الدكتور علي عبدالرزاق عن النبي (صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) (أنه ما كان الا رسولاً لدعوة دينية خالصة ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ... ولم يقم بتأسيس مملكة ...ما كان الا رسولاً كأخوانه الخالين من الرسل)قائلاً :(يا بعد ما بين السياسة والدين)[22].

وكذلك قال الدكتور طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) (ان القران لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملا او مفصلاً، وانما أمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ... وأن النبي (صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) نفسه لم يرسم بسنته نظاماً للحكم ولا للسياسة)[23].

ومن المعاصرين يرى محمد رضا محرم ان العلمانية هي الاطار اللازم للتحديث وان الناس علمانيون بالفطرة وأن كل المسلمين بالتالي هم علمانيون[24] ، كما يرى مراد وهبة ان العلمانية هي المسار الانساني في حضارتنا[25].

وبشكل عام ،يسوق التيار العلمانى حججا كثيرة لعلمانية الدولة وفصل الدين عن السياسة ومن الحجج التى يستند عليها التيار العلمانى :-

1. أن الدولة الدينية تفضى الى الدكتاتورية، فالحاكم فى هذه الدولة يدعى لنفسه وضعاً استثنائياً، وينفرد بمعرفة رأى السماء وتفسيره، ومن ثم يدعى لنفسه العصمة ولآرائه القداسة، وأنه لا يجوز مناقشة آرائه فضلاً عن معارضتها، ذلك أن مثل هذه المعارضة تعتبر معارضة للدين، كما أنه لا يحق لأحد مساءلته لأنه لا ينوب عن الشعب ، وإنما ينوب فى حكمه للشعب عن الله، فهو مسؤول أمام الله ، ولاحق للشعب فى محاسبته. ولتفادى هذا الوضع لابد من فصل السياسة عن الدين فصلاً تاماً.

2. أن الدولة الدينية دولة جامدة لان القائمين على أمرها ينطلقون من أن الدين يمثل الحقيقة المطلقة والنهائية، ومن ثم، لا يسمحون بدخول أى مفاهيم جديدة ، فينعكس هذا الجمود على المجتمع ويؤدى الى تخلفه، ومثل هذه الدولة لا يكتب لها الاستمرار لثباتها وتغير الاشياء من حولها.

3. أن أغلب الدولة الإسلامية تتكون من شعوب متعددة الديانات، وفى ظل الدولة الدينية يسود التمييز على أساس الدين، فالمواطن الذى يعتنق ديناً غير دين الدولة ياتى فى المرتبة الثانية فى صفة المواطنة. وأن هذا الوضع- إضافة الى كونه غير انسانى ويناقض السماحة التى تنادى بها كل الاديان- فإنه يهدد الدولة بالتصدع والانقسام .

(22) علي عبدالرزاق ، الاسلام واصول الحكم ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، 1925 ، ص 16- 17 .

(23) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 ، الجزء الاول ، ص24-25 .

(24) نقلا عن: عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة ، العلمانية تحت المجهر ، دار الفكر (دمشق) ودار الفكر المعاصر (بيروت) ، الطبعة الاولى ، 2000م ، ص 68 .

(25) المرجع السابق ، ص 69 .

4. ان الدولة الدينية تعادى العلم لأنها تستند فى تفسيرها للكون والتاريخ والحياة على النصوص المقدسة ، وهذا يهدد العلم والعلماء خاصة إذا توصل العلماء الى حقائق تخالف التفسير الدينى أو انطلقوا فى ابحاثهم من فرضيات تخالف ما جاء فى الكتب الدينية ،وقد تعرض العلماء فى أوربا فى وقت قريب الى ضغوط شديدة بسبب آراء ومفاهيم تخالف المفاهيم الدينية السائدة.

وقد تصدى التيار الاسلامى لتفنيد هذه الحجج، وسنتناول رد التيار الاسلامى عليها فى أربع نقاط:

1. طبيعة السلطة فى الاسلام.
2. الاسلام والتحديث.
3. أوضاع غير المسلمين فى ظل الدولة الاسلامية.
4. موقف الاسلام من العلم.

1. طبيعة السلطة فى الاسلام:

يتساءل الدكتور محمد عمارة – وهو من مناهضي العلمانية في العالم الاسلامي والف حول ذلك عددا كبيرا من الكتب والمقالات والابحاث – هل فى الاسلام سلطة دينية بالمعنى الذى كان سائدا فى أوربا فى العصور الوسطى؟ أى هل للحاكم أو الخليفة فى الدولة الاسلامية ان يدعى العصمة لنفسه والقداسة لآرائه واجتهاداته ؟.

ثم يعرف الدكتور محمد عمارة السلطة الدينية بأنها تعنى أن يدعى إنسان ما لنفسه صفة الحديث باسم الله ، وحق الانفراد بمعرفة رأى السماء وتفسيره، وذلك فيما يتعلق بشئون الدين أو الدنيا[26].

وفي واقع الأمر فقد ساد هذا النوع من السلطة فى أوربا فى العصور الوسطى وعرف باسم الثيوقراطية (Theocracy) أوالسلطة الدينية حيث كان الملوك يحكمون بالحق المقدس (Divine Right) ، وقد فتح مفهوم السلطة الدينية الباب واسعاً أمام الحكام للتهرب من المساءلة، لأن المفهوم الذى كان سائدا هو أن الحاكم نائب عن الله ومحاسب لديه فقط ولا حق للشعب فى مساءلته. وكان نتيجة ذلك أن ظهرت الدكتاتوريات فى أوربا وعانت الشعوب الأوربية كثيراً من هذا المفهوم حتى تمكنت – وبعد ثورات دموية كثيرة– أن تلغى هذا النظام وتستعيد حقها فى الحرية والمشاركة السياسية.

ولعل أهم الأسباب التى أدت الى طغيان رجال الدين المسيحى هو مبدأ (التوسط بين الله وخلقه) ، الذي كان سائداً آنذاك، حيث كان الناس يعبدون الله ويطلبون مغفرته إذا أخطأوا بواسطة رجال الكنيسة، وقد ترتبت على ذلك آثار سيئة قادت الى احتكار الاكليروس لحق قراءة الكتاب المقدس وتفسيره، ومهزلة صكوك الغفران وغيرها.

(26) محمد عمارة، الاسلام والسلطة الدينية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1980م، ص10.

أما فى الاسلام فليس هنالك وسيط بين الانسان وربه، فهو يعبده دون واسطة، ويتوجه اليه بالاستغفار مباشرة إذا أخطأ، وليس هنالك فئة تحتكر الحديث باسم الله وتفسير كتابه. ولعل هذه الخاصية كما لاحظ العالم الفرنسى (رينيه) هى (إحدى كبريات المسائل التى فاق بها الإسلام جميع الأديان) . فالعبادة فى الاسلام لا تحتاج الى وسيط كما ذكرنا، وليس هنالك اسرار تحتكرها جماعة من دون الناس وتتمتع- نتيجة لذلك- بامتيازات استثنائية كما ادعت طبقة رجال الدين المسيحى فى اوربا، ولعل فى ذلك ما ينفى القول بثيروقراطية السلطة فى نظام الخلافة الاسلامى.

كذلك ، فإن كل التيارات الاسلامية في الاسلام - باستثناء الشيعة- تجمع على انكار السلطة الدينية ، وتؤكد أنه لا يحق لأى فرد أو جماعة أو حزب أن يدعى لنفسه العصمة ولآرائه القداسة، بل يذهب محمد عمارة الى حصر عصمة الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) فى الجانب الدينى فقط لأنه كان فى ذلك مبلغاً من الله سبحانه وتعالى ولم يكن مجتهدا وإنما هو الوحى ، أما الجانب الدنيوى الذى تعرض له الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) عندما اقام الدولة وساس الأمة، ونظم المجتمع، وقاد التنمية والعمران فقد كان بشرا مجتهداً.... ومن ثم، كانت اجتهاداته وآراؤه فى هذا الجانب موضوعاً للشورى أى الأخذ ، والرد، والقبول والرفض، والإضافة والتعديل[27].

كما أن الاسلام لم يحدد للمسلمين نظاماً مفصلاً للحكم ، وإنما ترك لهم الفرصة ليجتهدوا لاقامة الدولة الاسلامية فى إطار الوصايا العامة والقواعد الكلية المقررة فى الدين، وابن القيم الجوزية يعرف السياسة الاسلامية بأنها ما كان من الافعال بحيث يكون الناس معه أقرب الى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وان لم يشرعه رسول ولا نزل به وحى .... فاذا قامت امارات الحق ، وبرزت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره.... فالطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها وإنما المراد غايتها التى هى المقاصد[28].

فالاسلام ، كما ذكرنا ، لم يتعرض للتفصيلات، ومن ثم، فإن عملية تطبيق الحكم الاسلامى هى قضية اجتهادية قابلة للتخطئة والتصويب والأخذ والرد والمناقشة وابداء الرأي، وليست مقدسه ، فهي - في نهاية الأمر- إجتهادبشري.وهكذا تنتفي الثيوقراطيه ومايتبعهامن قداسة وعصمة ، فمن حق أي انسان أن يدلي برأيه في أي قضية ، والإسلام يحث على الشورى، وعلى مناصحة الحكام . والشورى ملزمة ، والاستماع إلى آراء المحكومين واجب على الحكام لايحق لهم تجاوزه ، أو التغاضي عنه، وقد جاء في القران(وشاورهم في الأمر) ومارسها الرسول(صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) حتى قال

(27) محمد عمارة ، الدولة الاسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، ص15 .

(28) محمد عمارة ، الاسلام والسلطة الدينية، ص 80- 81 .

ابوهريرة:لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ). ويقول ابن تيمية لاغنى لولى الأمر عن المشاورة ، فان الله أمر بها نبيه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ)[29].

والحاكم فى الدولة الاسلامية لاينوب عن الله ، وكما لاحظ محمد عبده فان الامة أو نائب الامة هو الذى ينصبه ، وهى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه[30].

فالشعب هو صاحب السلطة الحقيقية يمارسها بالطريقة التى يراها مناسبة ،سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو من خلال الممثلين . وبقاء الحاكم رهن بتقيده بحدود الاسلام وشريعته ، بل إن طاعته مقرونة بالتزامه بضوابط الشرع الحنيف ، فمتى فشل فى ذلك أو تباطأ كان الشعب فى حل من بيعته له ، لأن اتباع منهج الاسلام هو أساس العقد (البيعة) بين الطرفين . ويؤكد جمال الدين الافغاني(1837-1897م) أنه متى رفض الحاكم الالتزام والتقيد بحدود الاسلام وأخل بشروط العقد إما أن يبقي رأسه بلا تاج ،أو تاجه بلا رأس[31].

وخلاصة القول أنه إذا كانتممارسة الحكم تخضع للمراجعة والنقد وتبادل الاراء ، وإذا انتفت عصمة الحاكم فلا يمكن وصف الحكم في هذه الحالة بأنه (ثيوقراطي).

2. الاسلام والتحديث:

ماهو موقف الاسلام من التحديث والعلوم العصرية ؟ هذا السؤال الذي يثيره التيار العلماني كثيراً ، ويتهم من خلاله الحركات الاسلامية بعدائها للتحديث والعصرنة ، برز إلي الوجود نتيجة لاعتبار هذا التيار بالتجربة الأوربية حيث قام الصراع بين أنصار الحداثة وأنصار الدين ممثلين في البروتستانت الذين رأوا في كثير من آراء دعاة التحديث مخالفه لما ورد في الكتب المقدسة . وقد انقسم المجتمع الأوربي إلي مجموعتين :أنصار الحداثة ، وأنصار الدين ، وقد سمي الأخيرون بالأصوليين(Fundamentalists) . وقد كان جوهر الصراع يدور حول نظرية داروين وفكرة النشوء والارتقاء . ورغم اختلاف الظاهرتين فالعلمانيون يصفون الصحوة الاسلامية المعاصرة بالأصولية الاسلامية (Islamic Fundamentalism) ويرون أن الأصولية الاسلامية تمثل خطراً حقيقياً علي المسلمين الذين يسعون للمواءمة بين معتقداتهم الدينية وظروف العصر الذي يعيشون فيه[32].

لكن خورشيد أحمد يرى أن مثل هذه التسميات لاتقود العالم الغربي إلا إلي مزيد من التضليل ، لأن كلمة(Fundamentalism) قد ارتبطت في أذهان الأوربيين بتجربة تاريخيه محددة ،وهي تجربة لايوجد أدنى شبه بينها وبين الصحوة الاسلاميه المعاصرة[33].

(29) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 135 .

(30) محمد عماره ، الدولة الاسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية ، ص28 .

(31) جمال الدين الافغانى ، الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ، تحقيق محمد عمارة ، القاهرة ، 1968م ، ص 479 .

(32) The Economist 4.4.1992

(33) Khurshid Ahmed "The Nature of Islamic Resurgence", in John Sposito, Voices of Resurgent Islam, (ed) Oxford University Press, 1983, pp, 225-226.

وبالفعل يلاحظ أن لحركات الاسلامية لا ترفض التحديث والمفاهيم الجديدة ، ولا تعادي التكنولوجيا والعلوم العصرية ولعل مايؤكد ذلك قول المودودي: (إن أية امة في الأرض إذا وجدنا في تاريخها أو نظمها الاجتماعية أو أخلاقها درساً نافعاً يجب أن نأخذه منها ، ومن الواجب استقصاء أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص ، لنأخذ منها مانراه ملائما لحاجتنا وظروفنا لأن هذه الأمور إرث مشترك بين الإنسانية ، ومن الجهل المحض عدم إعطائها ما تستحق من اهتمام[34].

إلا أن التيار الإسلامي له بعض التحفظات ، فكلمة تحديث نفسها من اكثر المصطلحات تعقيداً ،ذلك أن التحديث الذي يتحدث عنه الغرب والنخبة الوطنية العلمانية يعتبر وثيق الصلة بالعلمانية والفلسفة الغربية ذات الطابع المادي . فالإسلاميون في واقع الأمر ،لايرفضون التكنولوجيا والتحديث وإنما يرفضون الفلسفة المادية الغربية لأنها تخالف روح الإسلام الذي يقيم التوازن بين المادة والروح ،والعقل الروحي .لذلك يري المودودي أن يكون الأخذ من العلوم الطبيعية والبحتة ،وأن نتفادي العلوم التي تحمل ظلال الفلسفة الغربية وقيمها المادية فيوكد أنه: يجب أن نميز بين ما حازه الغرب من الرقي الحقيقي في المدينة والعلوم عن ضلالاته في فلسفة الحياة ووجهة الفكر والنظم والاخلاق والاجتماع ،فنأخذ الأول ونستفيد منه ، ونضرب الصفح عن الثاني ونطهر من أدناسه شئون حياتنا كله[35].

ولعل اكثر ماتدعو إليه الحركات الإسلامية اليوم ، هو ضرورة التجديد في الفقه الإسلامي حتى يتناسب وظروف العصر ، فالإسلام لم يهتم كثيراً بالتفصيلات والفرعيات وذلك هو سر صلاحه لكل الازمان والأمكنة ، فقد رسم الاسلام الحدود ، وحدد المواجهات والاهداف العامة ، وترك -بعد ذلك- حرية الاجتهاد للمسلمين ، على ان يراعو هذه الحدود والموجهات العامة. وكما لاحظ عبد القادر السنهوري فإن القرآن والسنة ينطويان علي مبادئ عامة ، ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هي الفقه ذاته،فالفقهالإسلامي هو من عمل الفقهاء ، صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاتهم القانون المدني[36].

وهكذا فان القول بتحجر القوانين الدينية فهو قول لا يستند الى دليل، ذلك أن مبدأ الاجتهاد فى الاسلام يحول دون ذلك ، فالفقه ليس نصوصاً جامدة ونهائية وإنما هو موضوع خاضع للتعديل وإعادة النظر من وقت لآخر، والإسلام يحث الفقهاء على الاجتهاد لتقديم الصيغ المناسبة والملائمة للمتغيرات التى تذخر بها الحياة .

وبالتالي، يتضح أن القول بجمود الدولة الإسلامية غير صحيح ، ذلك أن أمر المستجدات من القضايا متروك لاجتهاد المسلمين في إطار الموجهات العامة للاسلام .

(34) محمد عمارة، الصحوة الاسلامية والتحدى المعاصر، دار الشروق، بيروت، بدون تاريخ، ص113.

(35) نفس المرجع، ص 115.

(36) محمد عمارة، الاسلام والسلطة الدينية، ص79.

3. أوضاع غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية:

يعتبر هذا السؤال هو أكثر الأسئلة حضوراً في صراع العلمانية والإسلام في الشرق الأوسط بصورة عامة ، ذلك أن أغلب هذه الدول تتكون من أغلبية مسلمة وأقلية تعتنق أدياناً غير الإسلام. لذا برز السؤال عن وضع الأقليات غير المسلمة فى ظل دولة تطبق الشريعة الإسلامية.

يؤكد التيار العلمانى أن إقامة دولة إسلامية فى هذه البلاد سيضر حتماً بمصالح الفئات غير المسلمة ويحرمها من المشاركة السياسية ، بل إن هذه الفئات ستصنف فى ظل الدولة الإسلامية فى الدرجة الثانية فى صفة المواطنة ، وذلك فقط لأنها تعتنق ديناً آخر غير دين الدولة.

بينما يرى التيار الإسلامى أن هذا السؤال لم يبرز الى الوجود إلا لتأثر النخبة العلمانية بالتاريخ الأوربى حيث قام الصراع المعروف بين المسيحيين واليهود وانتهى بطرد اليهود من أوربا ، بينما يختلف الأمر فى الاسلام، فالتاريخ الاسلامى لم يشهد قيام دولة كل رعاياها من المسلمين وحتى دولة المدينة التى أسسها الرسول (صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ) إنما كانت خليطاً من المسلمين والمسيحيين واليهود الموجودين بالمدينة آنذاك وقد وصفتهم الوثيقة التى قامت على أساسها دولة المدينة بانهم (أمة واحدة من دون الناس .... وأن بينهم النصر على من دهم يثرب). وقد وجد غير المسلمين أفضل المعاملة فى ظل الدولة الإسلامية فى كل العصور ، بل إن اليهود وبعض الفرق المسيحية قد احتموا بالمسلمين فى صراعهم مع إخوانهم المسيحيين[37].

وفي الواقع ، فإن الحديث عن إضرار الشريعة الإسلامية بمصالح الفئات غير المسلمة قول يدحضه التاريخ وهو - بالفعل- قد جاء اعتباراً بالتاريخ الغربى وبصورة خاصة من تاريخ العلاقة بين المسيحيين واليهود، وتاريخ هذه العلاقة يذخر بالصراعات المتواصلة. يذكر عماد الدين خليل أنه فى السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الإمبراطور قائده (ابنوسوس) ليقضى على ثورتهم ، فذهب وانفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً، قتلاً بالسيف، وشنقاً ، وإغراقاً ، وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الكاسرة. وحدث ذلك بين اليهود والنصاري مرة بعد مرة[38].

ويورد المقريزى نموذجاً آخر للتعامل بين الطرفين حيث يقول : فى أيام فوقا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس بجيوشه إلى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس و فلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصاري بأجمعهم.. وسبوا سبياً لا يدخل تحت

(37) حسين فوزى النجار ، الاسلام والسياسة ، بحث فى أصول النظرية السياسية ونظام الحكم فى الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ ، ص 120 .

(38) عماد الدين خليل ، ملاحظات فى تاريخ المجتمع الاسلامى ، مكتبة النور ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 40 .

حصر، وساعدهم اليهود فى محاربة النصاري وتخريب كنائسهم. (وفى المقابل فإن هرقل) أوقع باليهود وقيعة شنيعة أبادهم فيها جميعاً، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى[39].

أما فى الإسلام فإن تاريخ النساطرة يقف شاهداً على حسن معاملة المسلمين لغيرهم من الملل حيث عاملهم المسلمون معاملة طيبة، بل اتاحوا لهم الفرصة وهم رعايا الدولة الاسلامية- أن يقوموا بحملات التبشير فى الخارج فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها الى رتبة المطرانية فى القرن الثامن الميلادى . وفى العصر نفسه تقريباً رسخت اقدامهم فى مصر ، ثم اشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية فى آسيا، حتى إذا جاء القرن الحادى عشر كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من التتار[40]، بل إن المعاملة الكريمة التى وجدها أصحاب هذه الملل أدت الى اسلام الكثيرين منهم .

ويرى التيار الاسلامى ان الدعوة الى العلمانية بهذه الحجة غير منصف، ذلك أن الأغلبية فى هذه البلدان من المسلمين ويريدون التعبير عن أحكام دينهم الى اقصى مدى ممكن. وذلك يعنى اسلمة كل وجوه الحياة بما فى ذلك السياسة والاقتصاد والاجتماع والآداب وغيرها من الوجوه. كما أن اسلمة الدولة لا تضر بهذه الفئات لأنها أساساً تقصر الدين على المسائل الشخصية للفرد، ومن ثم فان للمسلمين الحق فى التعبير عن دينهم الى اقصى حد ممكن ، على أن يتفادوا ما يضر بمصالح الفئات غير المسلمة ، وان تستثنى هذه الفئات من المسائل الإسلامية ذات الطبيعة التعبدية الخالصة أو التى تتنافى مع دينهم وأعرافهم .

4. موقف الاسلام من العلم:

يؤكد الاسلاميون ان صراع الدين والعلم هو خاصية بروتستانتية ولا يصح أن يقاس عليها موقف الاسلام من العلم. فقد نبغ العلماء فى الطب والصيدلة والهندسة والكيمياء والفيزياء وسائر العلوم فى ظل الدولة الاسلامية ولم يقم بينهم وبين السلطات ما يدعو للحرق أو التعذيب كما حدث فى أوربا بل، وعلى العكس من ذلك فقد وجدوا تشجيعا كبيراً من الحكام الذين اجزلوا لهم العطاء، وهذا التشجيع الذى لقيه العلم والبحث العلمى، انتهى الى ذلك الانتاج الثقافى الباهر فى ايام الامويين والعباسيين وايام دولة العرب فى الاندلس[41].

(39) نفس المرجع ، ص 41 .

(40) نفس المرجع ، ص37 .

(41) ايوبولد فايس ، الاسلام فى مفترق الطرق ، ص68 .

ولا يحق لأحد أن يتعرض للعلماء ، وليس لرجال الدين الاسلامى سلطة إلا سلطة الموعظة الحسنة كما لاحظ محمد عبده، بل إن تعبير (رجال الدين) نفسه لا ينطبق ولا يتفق مع عرفنا، فانه وإن كان هذا اللقب فى الغرب خاص بـ(الاكليروس) ، فإنه فى العرف الاسلامى يشمل كل مسلم، فالمسلمون من اصغرهم لاكبرهم (رجال دين)[42].

ولعل أهم ما يتميز به الاسلام عن الاديان الأخرى فى موقفه من العلم، أن الاسلام لا يمد نطاق علوم الشرع والوحى الى العلوم الدنيوية، فالعلوم فى الإسلام تنقسم الى قسمين : علوم دينية تعتمد على (النقل) والاستنباط والاجتهاد وفق ضوابط الشرع المعروفة، وعلوم دنيوية ترك الفصل فيها للعقل والنظر والتأمل والتجربة .وعلى كل ،ففيما يتعلق بموقف الاسلام من العلم لا يحتاج المرء الى الاستشهاد بالآيات والأحاديث النبوية للدفاع عنه ، فايات قرانية عديدة واحاديث نبوية لا حصر لها تدعو الى العلم وتعلي من قيمة العلماء ،كما ان التاريخ يؤكد أن العلم لم يجد الاهتمام الذى وجده من الإسلام من أى دين آخر .

خلاصة:

نخلص من هذا الى أن العلمانية ظاهرة أوربية ناشئة عن التعارض بين حركة العلم الصاعدة والمفاهيم الكنسية الجامدة فى تفسير الطبيعة والتاريخ. هذا التعارض مقترنا بازدواج مصدر السلطة (سلطة الكنيسة وسلطة الدولة المدنية) ، قد أدى الى ذلك الصراع الذى انتهى الى تغليب سلطة الدولة على سلطة الكنيسة، وحصر اختصاص الكنيسة فى المسائل الشخصية والقضايا المتعلقة بالحياة الأخروية فقط.

وفي واقع الأمر □ يرى الباحث- ان هناك عدة عوامل قادت الى العلمانية في اوربا ، ولا تزال تسهم في استمرارها . هذه العوامل يمكن تلخيصها في الاتي:

1. غياب النص الموحى في المسيحية:

ونعني بذلك عدم توفر النص الذي اوحاه الله الى موسى وعيسى عليهما السلام ، فـ(الاناجيل) وهي سيرة للرسولين -كتبت بعد فترة طويلة من رفع السيد المسيح عليه السلام ، وهي فترة لا تقل عن الثلاثمائة سنة.

هذا الغياب للنص الدينى الموحى وطول الامد بين حياة المسيح وتدوين هذه الاناجيل ، سمح بدخول بعض الافكار والمعتقدات التي تنافي العقل والمنطق ، كعقيدة التثليث وفكرة العشاء الرباني(×) وغيرها ، وقد أوحت مثل تلك الافكار الى فكرة التعارض بين الوحي والعقل ، وقوى موقف الداعين الى استبعاد الدين من الحياة العامة:

(42) حسن البنا ، نحو النور، مجموعة رسائل البنا ، دار الشروق ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص86 .

الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية ، والتي ينبغي ان تستند الى العقل والمنطق في التعامل معها وايجاد الحلول المناسبة لمعضلاتها ، وهو ما لا يمكن للدين بوضعه الحالي من التعامل معها والقدرة على حل المشكلات القائمة والتحديات الماثلة .

2. سيادة الافكار المسيحية الداعية الى احتقار الحياة الدنيا والدعوة الى اعتزالها:

فقد ظهرت افكار تحتقر الدنيا وتدعو الى اعتزالها ، وظهر اتجاه تطهري(Puritan) قاد الى الرهبانية والامتناع عن الزواج ووصل الى حد تعذيب النفس في بعض الاحيان (تقرباً الى الله)!.

مهدت هذه الافكار -كذلك- الى العلمانية لان الدين الذي يحتقر الدنيا ، لا يسعى الى حل مشاكلها ، مما يعني -صراحة - ضرورة البحث عن حلول لهذه المشاكل خارج اطار الدين كما ان الاتجاه التطهري الذي ينافي الفطرة الانسانية ، قاد الى انحرافات وممارسات جنسية خاطئة وسط رجال الدين انفسهم ، انكشف امرها وقادت الى احتقار رجال الدين من قبل المجتمع .

3. الاستبداد الكنسي وتدخل الكنيسة السافر في الشؤون العلمية والسياسية:

لقد سعت الكنيسة وبكافة الوسائل الى التدخل السافر في الجوانب العلمية والعمل على فرض رؤيتها وتصورها للكون والحياة -كما سبقت الاشارة حول موقفها من قضية كروية الارض على سبيل المثال- فضلاً عن سعيها الدائب للحجر عل الافكار والحريات العامة ، وتدخلها في الشؤون السياسية الى درجة تنصيب الحكام والغاء الدساتير التي اجازتها الشعوب كما في الحالة الفرنسية حيث حكم البابا بشطب الدستور رغم موافقة الشعب عليه، وفرض الضرائب على الممالك.

كل ذلك قاد الى تضافر جهود العلماء المجددين والامراء ومؤيديهم والانقلاب على الكنيسة والدعوة الى (طرد الدين) من الحياة العامة ، وحصره -ان كان لا بد منه - في دائرة المسائل الشخصية .وقد جاءت الدعوة الى العلمنة في هذا الاطار لسحب البساط من تحت ارجل الكنيسة في الشؤون العلمية والسياسية خاصة ، حتى ينفتح الباب امام الحريات العلمية والسياسية ، بما يعزز سلطة العلماء والامراء ، وبما يقود الى حرية البحث العلمي وتعزيز حقوق الافراد والجماعات بعيداً عن هيمنة الكنيسة.

وفيما يتعلق بالنقاشات الدائرة في العالم الاسلامي حول العلمانية والاسلام ، فالملاحظ أن كل الاعتراضات التى أثارها التيار العلمانى واستند عليها فى دعوته لفصل الدين عن الدولة ترجع الى تأثر هذا التيار بالتاريخ الغربى والتجربة الأوربية ، فى حين أن جميع هذه الاعتبارات المستنبطة من التاريخ الأوربى لتبرير الدعوة للعلمانية،

لا علاقة لها بالتجربة التاريخية للعالم الاسلامى، بل إن جلب الاستعمار للعلمانية الى دول العالم الاسلامى قد خلق الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى هذه البلاد، كما أدى الى خلق فجوة- لا زالت قائمة حتى اليوم- بين الشعوب الاسلامية وحكوماتها ذات التوجه العلمانى.